الرجال والنساء الذين كانوا يدافعون عن حيفا لم يعودوا هناك . كانوا وحدهم . كانوا امواتا . كانوا يحتضرون . كانوا جرحى . ثم يذهب الناس . والراديو مات . وقبل ان يموت يصدر احدهم البيان رقم ١٥ على الهواء . وماذا كان البيان رقم ١٤ ؟ و٨ ؟ واللانهاية ؟ ولكن لم يكن هناك بيان رقم ١٦ . فالأثير كان مختنقا بالنار . واليأس . والموت . ومنذ ذلك الحين ، يتساءل الناس لماذا انا أستعمل النفي المزدوج حول منزلي ، غير عابئين بجدراني المكسوة بالكتب . ولماذا استُعمل عبارات مثل الامة والوطن والحقوق غير القابلة للتحويل . منذ ذلك الحين ، سافرت عبر امم كثيرة ، طاويا امتي في نكريات فتية عاجزة وقد كنت أخشى ان احدا ما سيراها ويضحك علي . ولكن في جميع تلك المدن الاجنبية كنت متدثرا بمعاطف مطر سميكة من الآخرية قبل ان تمطر بوقت طويل . وطوال ذلك الوقت بقيت مخلصا لمواقفي في منتصف الليل .

واليوم في بيروت ، بعد ثلاثة عقود ، انا هنا لأبحث عن البيان الرقم ١٦ . واتساءل اذا كان سيكون لنا ابدا مناطق محررة استطيع الذهاب اليها ، وان اكون واشعر فيها بالحرية .

كيف افسر ، اليوم ، موت ابي ؟ كيف افسر تقليد اللاجئية الذي نقله الي في الخمسينات عندما اصغيت الى تمتماته حول كم اننا سنعود جميعا سريعا ــ وبيقين سريعا . وستنتهي جميع الآمنا . انتظر حتى نعود ، ولن نعاد نحن والكون الى سبيلنا الذي حتمه القضاء والقدر الا عندما نعود . هو يذهب الى الاونروا ليتسلم الحصص ويعتمر حطته ويرتدي شرواله فيما ينتظر في الصف . نحن لاجئون ، يقول ، انتظروا حتى نعود . وتبدأ كلماته في اكتساب احرف كبيرة في وعيي . واسأل والدي اي نوع من الحقيقة سنبني عندما نعود ، واي نوع من العالم سنعود اليه . فيقول لي ان هذا لا يوجد الا في قلب الشاعر . مثل هذه المجازات الرائعة اتعلمها منه . وهو يمضي بقية ايامه معتنيا برماد نظام منطقه المدمر المحترق ، آملا في ان تقفز منه ومضة . عالم والدي ، في السنة الثالثة في الغربة ، قد اخذ يسوء ، وصوره الشرسة تظل تضغط بصورة لا تطاق على روحي .

في مخيم اللاجئين الذي اقمنا فيه ، في الاعوام الثلاثة الاولى من غربتنا ، تحكم حياتنا حاسة مريعة من لاجئية ابي ممزوجة مع دفق قوي لا يمكن تفسيرة من الطاقة . وفي الصيف ، الحر شديد الشراسة ويطن في الهواء ذباب كبير . وكل شيء بطيء الحركة ، هادىء ، ونائم . والكلاب ، كالاطفال ، تظهر العظام تحت جلدها وترقد في ظل الخيام . وفي الساعات بعد الظهر ، لا يمكن رؤية الناس في اي مكان ، في ما عدا امرأة تشاهد احيانا تسير على الدرب الترابية الى مضخة الماء مع مقلاتها . لا احد يعرف اننا هناك . ولا احد يستطيع ان يعرف ما اذا كنا مهملين او منسيين . وبعد فترة من الوقت لا يعود الامر يهم .

في المساء يجلس الشيوخ في مقهى الشارع الجانبي للمخيم المضاء بقناديل الكاز . ويتحدثون باختلاس الى بعضهم البعض . والكلمات احيانا مشبوبة العاطفة ، غضبى . يتكلمون عن فلسطين . عن العودة . يتكلمون بثقة ، بأمل ، عن مناقشات الامم المتحدة . ولا احد يشك ان بقاءهم هنا هو مؤقت ، وبدل ذلك يتكلمون عن الصعوبات التي يلاقيها الفلسطينيون ، عن كسب الرزق ، والحصول على تصريح عمل ، وتصريح اقامة ، وتصريح لعبور الحدود ، وعن اي زعيم عربي طعننا اكثر في الظهر من الزعماء الآخرين ، وعن اية دولة